٤ ـ الانتحـــار

للأستاذ مصطفى صادق الرافعي

قال المسيَّب بنُ رافعٍ : ومدَّ الامامُ عينَه وقد رُفِعَ له شخصٌ من المجلس ؛ ثم جَلَّى بنظره كأنما يتطلَّع إلى عجيبةٍ كالحق إذا بَطَل ، والصدق إذا كَذَب ؛ ثم ردَّ بصرَه عليَّ كأنه يُعجِّبني من عجَبه ؛ ثم سَجَا طرْفُه كأنما أنكرَ رأيَ عينيه فهو يلتمسُ رأيَ قلبه . وتبيَّنتُ في وجهه انقباضاً خيِّل إليَّ أن الشيطان جاءه بهذا الرجل يُفحِمُه به يُريه كيف يجعل أحد المؤمنين الصالحين يتحمَّسُ في دينه ليرجعَ بعد ذلك أصلاً لا غِنى عنه في إنشاء قصة كُفْر !

هذا هو ضيفُنا (أبو محمد البَصْري) يَتخوَّضُ الناسَ ليجيءَ فيحدِّثَنا حديثَه في قَتْل نفسه والأثمِ بِرّه ؛ فلو قيل لي : إن قوسَ السماء بأحمرِه وأصفرِه وأزرقِه وأخضرِه ، قد وقع إلى الأرض واصطبغ من ألوانه أوحالاً وأقذاراً — لكان هذا كهذا في تعاظُمه وإنكاره والعجبِ منه ؛ فأبو محمد من الرجال الخُنْس[1] الذين لو كَفَر أحدُهم ثم قيل «إنه كفر» ، لقَصَّر اللفظُ أن يبلغَ الحقيقةَ أو يصفَ شُنْعتَها ، كما يقصِّر لفظُ الجنون عن وصف حكيم تألَّى أن يعمل عملاً يخرج به من الكون ، فلا يبقى في أرضٍ ولا سماء ولا تناله يدُ الله ! إن في لفظ الكفر مع ذلك ، وفي لفظ الجنون مع هذا — شيئاً من نفاق العقل وتأدُّبٍ به في أداء المعنى الأخرقِ الذي لا يُشبِهُه جنونٌ ولا كفر

ونعوذُ بالله من خذلانه ؛ فلقد يكون الرجلُ المؤمنُ في تشدُّدِه وإيغاله في الدين — كالذي يصنع حبلاً يَفتِله فتلاً شديداً فيُمِرُّه على طاقٍ بعد طاق ، ليكونَ أشدَّ له وأقوى ، ثم يجاذبه الشيطانُ حبلَه ، فاذا هو كان في الوَهْن مثلَ المنكبوت اتخذتْ بيتاً في سقف حدّاد ؛ فرآه يَصبُّ الحديدَ المصهورَ يجعله سلسلةً حلْقةً في حلقة ، فذهبتْ تحكيه وتُرسِلُ من لُعابها خيطاً في خيط تزعمه سلسلة . . . !

إن مع كل مؤمن شيطاناً يتربَّصُ به ، فلهذا ينبغي للمؤمن أن يكون في كل ساعة كالذي يشعر أنه لم يؤمن إلا منذ ساعة ؛ فهو أبداً محترسٌ متهيئٌ متجدِّد الحواسِّ مُرْهَفُها يستقبل بها الدنيا جديدة على نفسه بين الفترة والفترة ؛ ومن هذا حكمةُ أن يؤذِّن المؤذِّن وأن تُقام الصلاةُ مراراً في اليوم ، فكلما بدأ وقتٌ قال المؤمن : الآن أبدأ إعاني أطهرَ ما كان وأقوى

* * *

وقال الامام : هِيــه يا أبا محمد ؛ فقال البصريّ وقد رأى الكراهة في وجه الامام : لا يُفزِعنَّك أيها الشيخ ؛ فان الله تعالى قد يجعل ما يحبّه هو فيما نكره نحن ؛ وليس للأقدار لغةٌ فتجريَ على ألفاظنا ؛ وقد نُسمي النازلةَ تنزل بنا خَساراً وهي ربح ، أو نقولُ مصيبةٌ جاءت لتبديل الحياة ، ولا تكون إلا طريقةً تيسرتْ لتبديل الفكر . إنما لغةُ القـدَر في شيء هي حقيقةُ هذا الشيء حين تظهر الحقيقة ؛ وكأيّن من حادثةٍ لا تصيب امرأً في نفسه إلا لتقعَ بها الحربُ بين هذه النفس وبين غرائزها ، فتكونَ أعمالُ الطبيعة المادية أسباباً في أعمال العقل المنتصر

(١) أي المتحمسين في دينهم

مغرياً في الفضاء ، فتاناً في الحدائق ،
بهيجاً في الألوان ، رشيقاً في الشقائق ،
طروباً في قلب الجذلان !
هوذا الربيع ، هوذا الربيع !
كئيباً في قلب المظلوم ، جريحاً في قلب المحروم ؛
شاملاً بعطفٍ نصفه قسوة ،
حاضناً برفق نصفه عنف ،
موحياً أملاً نصفه يأس ،
مذكياً خصباً نصفه قحل ،
حافزاً شباباً نصفه هرم ،
مجدِّداً حياة نصفها رَدىً !
الربيع الربيع ، لمن يكون الربيع ؟
الربيع الجديد ، هوذا الربيع !
الربيع العابر ، هوذا الربيع !

« مى »

وكثير من هذا البلاء الذى يَقْضى على الانسان، لا يكون إلا وسائلَ من القدَر يُرَدّ بها الانسان إلى عالَم فكره الخاصّ به؛ فان هذه الدنيا عالَمٌ واحد لكل مَن فيها، ولكن دائرة الفكر والنفس هى لصاحبها عالَمُه وحده. والسعيد من قرَّ فى عالمه هذا واستطاع أن يحكم فيه كالملك المطاع فى مملكته، نافذَ الأمر فى صغيرتها وكبيرتها؛ والشقىُّ من لا يزال ضائعاً بين عوالم الناس، ينظر الى هذا الغنىّ، وإلى ذاك المجدود، وإلى ذاك الموفق؛ وهو فى كل هذا كالأجنبىّ فى غير بلده وغير قومه وغير أهله، إذ كلُّ شىء يصبح أجنبياً عن الانسان مادام هو أجنبياً عن نفسه

لقد كنتُ ضالاً عن نفسي وعالَمِها، فكنت فى هذه الدنيا أستشعر شعورَ اللص، أشياؤه هى أشياء الناس جميعاً؛ واللص ينظر إلى أموال الناس بعينيَ شاعرٍ متحبّبٍ كلِف، وهى تنظر إليه بعينيَ مُقاتلٍ متربّصٍ حَذِر

كنتُ والله إن ضِقْتُ بالناس أو وسِعْتهم — رأيتُ فى ذلك معنى من ضيق اللص وسَعته؛ هو على أىّ حالَيْه لا ينظر فى أعماق نفسه إلا شخصاً متوارياً تحت الظلام يتسلّل فى خشيةٍ وحذر!

وكنتُ نزِقاً حديدَ الطبع سريعَ البادرة؛ ومَن فقدَ عالَم نفسه، وكان فى مَثَل اللص الذى ذكرتُ — فان هذه الطباع تكون هى أسلحتَه يَدْفعُ بها أو يَعتدِى. وما قطُّ تمكّن إنسانٌ من نفسه وأحاط بها ونفذ فيها تصرُّفُه — إلا كان راضياً عن كل شىء، إذ يتصل من كل شىء بجهته السامية لاغيرِها، حتى فى اتصاله بأعدائه من الناس وأعدائه من الأشياء؛ فما يرى هؤلاء ولاهؤلاء إلا امتحاناً لفضائله وإثباتاً لها. وقد يكون عدوُّك فى بعض الأمور عيناً لك فى رؤية نفسك؛ ففيه برَكةُ هذه الحاسّةِ ونعمتُها

ولو نحن كنا مسلمين إسلامَ نبيِّنا (صلى الله عليه وسلم)، وإسلامَ المقتدين به من أصحابه — لأدركنا سرَّ الكمال الانسانى؛ وهو أن يَقِرَّ الانسانُ فى عالم نفسه ويجعلَ باطنَه كباطن كل شىءٍ إلـهى، ليس فيه إلا قانونه الواحد المستمرُّ به إلى جهة الكمال، المرتفعُ به من أجل كماله عن دوافع غيره؛ فنَظَرُ الانسان إلى نقص غيره هو أولُ نقْصه. والمؤمن كالغصن؛ إن أثمر فتلك ثمارُ نفسه، وإن عَطَلَ لم يشحذ ولم يحسد واستمرّ يعمل بقانونه

ولقد نشأتُ فى مَغرِسٍ كريم، على صورة من الحياة تشبه صورةَ الثمرة الحُلوة، اجتمع لها من طبيعة مغرسها ومَرْتَبتها ما تتميّز به من حلاوةٍ ونكْهةٍ ومذاق؛ فلما عَقَلْتُ وعرفتُ الناسَ بعدُ جاريتُهم وخالطتهم، وأبقَتْنى منهم كالتفّاحة ملقاةً فى البصَل... وكانت التفاحةُ حمقاءَ فزادت حُمقاً، وكانت حديدة فزادت حِدّة، وظنّت أن الحكمة قد مَسَختْ فى الدنيا وبدّلتْ إذ خلقت البصلةَ بعد أن خلقت التفاحة؛ وما علمتِ الخرقاءُ أن الكمال فى هذه الحياة مجموعُ نقائص، وأن للجمال وجهين: أحدهما الذى اسمه القبح؛ لا يعرف هذا إلا من هذا؛ وأن البصلة لو أدركتْ ما يريد الناسُ من معناها ومعنى التفاحة لَسمَّتْ نفسَها هى التفاحةَ، وقالت عن هذه إنها هى البصلة!

ولما رأت تفاحتى أنها عاجزة أن تجعل الشجر كلّه فى مثل مرتبتها ومغرسها — قالت: إن الأمر أكبر من طبيعتى، وما دام سرُّ الكون مُغلَقاً فلا تعريف له إلا أنه سرٌّ مغلَق، ولْيبقَ كل شىء فى طبيعة نفسه، فعلى هذا يصلُح كلُّ شىء ولو فى نفسه وحدها

* * *

قال أبو محمد: ولكن بقيتْ وحشةُ الدنيا وجفوتُها، إذ لم أكن اهتديتُ إلى عالمى، ولا تأكّدتْ عقيدتى بنفسى؛ فكان كل ما حولى مُنبَجِساً فى روحى بشرِّه، وكانت الدنيا بهذا كالتطابقِ فى رأيى على معنى واحد، وزادنى أنى كنتُ رجلاً عَزَباً متعفّفاً؛ وما أشبَه فراغَ الرجولة من المرأة بفراغ العقل من الذكاء؛ هذا هو العقلُ البليد، وتلك هى الرجولة البليدة!

والمرأة تُضاعف معنى الحياة فى النفس، فلا جَرَمَ كان الخلاءُ منها مضاعفةً لمعنى الموت؛ عَلِمَ هذا مَن عَلِم وجهله مَن جهل، فكنت أعيش من الكون فى فراغٍ ميّت، وكنت أحسّ فى كل ما حولى وحشةً عقلية تُشعرنى أن الدنيا غيرُ تامّة؛ وكيف تتمّ فى عينى دنيا أراها غير الدنيا التى فى قلبي؟

وعرفتُ أن كل يومٍ يمضي على الرجل العَزَبِ المتعفِّف لا يمضي حتى يُبقيَ فيه مَرَضَ يومٍ آخر . ومن هذه الأيام المريضةِ المتهالكة ، تُعِدُّ الحياةُ انتقامَها من هذا الحيِّ الذي نَقضَ آيتها وافتات عليها ، وجعلَ نفسَه كالآلة لا زوجة له ولا صاحبة !

وايمُ اللهِ إن الشيطان لا يفرح بالرجل الزاني وبالمرأة الزانية ما يَفرح بالرجل العَزَب وبالمرأة العزباء ؛ لأنه في ذينك رذيلةٌ في أسلوبها ، أما في هذين فالشيطان رذيلة في أسلوب فضيلة . . . !

هناك يُلِمُّ الشيطانُ ويمضي ، وهنا يأتي الشيطانُ ويُقيم !

وقد عشتُ ما عشت بقلب مُغلَقٍ وعقل مفتوح ؛ وليتني كنت جاهلاً مُغلَقاً عقلُهُ ، وكان قلبي مفتوحاً لأفراح هذا الكون العظيم !

ومضت أيامي يضربُ بعضُها في بعض ، ويُعرِضُ بعضُها بعضاً حتى انتهت مُنتهاها ، وجاء اليوم المُدْنَفُ الهالكُ الذي سيموت . . .

أصبحتُ فقلت لنفسي : كم تعيشين ويحكِ في أحكام جسدٍ مُختلٍّ لا تَصدُق أحكامُه ، وما أنتِ معه في طبيعتك ولا هو معك في طبيعته ؛ ففيمَ اجتماعُكما إلا على بلائي ونكدي ؟

لم تصطلحا قطّ على واجب ولا لذّة ، ولا حلالٍ ولا حرام ؛ فأنتما عدوَّان لا همّ لكليهما إلا إفسادُ المَسرةِ التي تَعرِضُ للآخر . وما أدري عن يسخر الشيطانُ منكما ؟ فالعابدُ الذي يُوسْوِس بالملذاتِ يتمنّى اقترافها ، كالفاجر الذي يُواقعُها ويقتحمها !

ويحكِ يا نفس ! إني رأيت هذه الدنيا الحرقاءَ لم تُقدِّم لي إلا رغيفاً وقالت : املأ بهذا بطنَك وعقلَك وعينيك وأذنيك ومشاعرك . آه آه ! مُمْكنٌ واحدٌ معه أربعةُ مستحيلات !

إن هذا لا يَلْبثني أن يذهبَ مني بالأربعة التي تُمسكني على الحياة : الأمل والعقل والايمان والصبر

لقد استوى في هذه الكآبة صغيرُ همّي وكبيرُه ، وما أراني إلا قد أشرفتُ على الهَلَكةِ التي لا باقية لها ، فان وجهي المتكلِّحَ المتقبِّض يدُلُّ مني على أعصابٍ مُحتضَرة نَهكتْها أمراضُها ووساوسها ، وإنما وجهُ الانسان في قُطوبه أو تَهلُّله هو وجهُه ووجه دنياه تَعبِسُ أو تبتسم

وتالله لقد عجزتُ عن كفاح الدنيا بهذه الأعصاب المريضةِ الواهنة ؛ فان حِبالةَ الصَّيد ، صَيدِ الوحش ، لا تكون من خيط الابرة . . . ! وأراني أصبحت كانسانٍ حجريّ ليس في طبيعته الالتواءُ الى عين الحياة ويسارها ؛ ويُخيلُ اليّ من صلابتي أني الأسد ، ولكني أسدٌ من حجر ، لا تفرضُ قوّتُه الفرارَ منه على أحد !

* * *

قال أبو محمد : ورأيتُ نفسي في هذا الحِوار كالميّتة ، لا تجيب ولا تعترض ولا تُنكر ؛ وكنتُ أظنّها تُراودني على الحياة أو تردُّني عن غَوايتي ؛ فملأني سكونُها جزعا ، وأيقنتُ أن الشيطان بيني وبينها ، وأنه أخذ عنافدها ، فأردتُ الصلاة فثقُلْتُ عنها ورأيتني لا أصلُح لها ، بل خُيِّل اليّ أني إذا قمتُ الى الصلاة فانما قمتُ لأتهزّأ بالصلاة !

وجعل الشيطانُ يأخذني عن عقلي ويردُّني اليه ، ثم يأخذني ويردُّني ، حتى توهّمتُ أني جُنِنْتُ ، وكأنما كان يريد اللعين بقيّةَ إيماني يجاذبني فيها وأجاذبه ، فلم ألبث أن مسّني خبالٌ وألقيتُ هذه البقيّةَ في يديه !

ثم أفقتُ إفاقةً سريعة ، فرأيت (المصحفَ) يرقبني من قريب ، فعُذْتُ به وعطفتُ عليه وقلتُ له : امنع الضربةَ عن قلبي . بَيْدَ أني أحسستُ أنه خصمي في موقفي لا ظَهيري ؛ كأني جملته مصحفاً عند زنديق ، فكان كل إيماني الذي بقي لي في تلك اللحظة أني ضعفتُ عن حَمل المصحف كما ثقلت عن الصلاة ، فبقي الطاهر طاهراً والنجسُ نَجساً

ولم تكن نفسي فيَّ ولا كنتُ فيها ؛ فرأيتُ الدنيا على وجه لا أدري ما هو ، غير أنه هو ما يُمكنُ أن يكون معقولاً من تخاليط مجنونٍ تركه عقلُه من ساعة : بقايا شعورٍ ضعيف ، وبقايا فهمٍ مريض ، تتصاغرُ فيهما الدنيا وتتحاقرُ بهما العقل

فلما انتهيتُ إلى هذا لم أعقل ما عملت ، وكانت الموسى قد أصابت من يدي عِرْقاً ناشزاً مُنتَبِراً ، ففار الدّم وانفجر منه مثلُ الينبوع ضُرِبَ عنه الصخرُ فانشقّ فانبثق

وتحققتُ حينئذ أنه الموتُ، فنظرتُ فرأيت . . .

* * *

قال المسيّبُ راوي القصة: وتجهّم وجهُ الرجل فأطرق وسكت، وكان على وجهه تَشفُّقٌ مُحْمَرٌّ فأظلم بغتةً عندما قال: «فنظرتُ فرأيت»

وارتجّ المسجد بصيحةٍ واحدة: فرأيت ماذا، رأيتَ ماذا؟

وبعثتِ الصيحةُ أبا محمد فقال: رأيتُ ثلاثةَ وجوهٍ أشرقت من المصحف تنظر إليّ كالعاتبة، وكان أوسطُها كالقمر الطالع، لو تمثّلتْ آياتُ الجنة كلُّها وجهاً لكانته في نضرته وبشاشته. وغمغمتْ بكلمات لم أسمعْ منها شيئاً، ولكن نظرَها إليّ كان يؤدّي لي معانيها وكأنها تقول: «أكذلك المؤمن . . . ؟»

ثم غابت وتخلّت عني وبرزت ثلاثةُ وجوهٍ أخرى، كأنها نقائضُ تلك، وأعوذ بالله من أوسطها، لو تمثّلتْ آياتُ الجحيم كلُّها وجهاً لكانته في نُكْرِه وهَوْله، وخُيِّل إليّ أن الوجهَ الأصفرَ منها وجهُ سُورةٍ من سُوَر المصحف، ففكّرت، فوقع لي مما قام في نفسي من اللمعة أنها: «تَبَّتْ يَدَا أبي لَهبٍ وتَبَّ . . .»

وطمسَ الظلامُ هذه الرؤيا وتغيّمتِ الدنيا، فأيقنتُ أن آثامي قد أقبلتْ عليّ ظُلْمةً بعد ظُلْمة، والدمَ شيءٌ أحمر، فنظرتُ فاذا الدمُ يتخايلُ في عينيّ كأنه شُعَلٌ تتلوّى، فجزعتُ أشدَّ الجزع، وحسبتها طرائقَ ممتدةً لروحي تذهب بها إلى الجحيم

وماتت كلُّ خواطري بعد ذلك إلا فكرةً واحدة بقيتْ حيّةً تأكل في قلبي أكلَ النار، وهي: «كيف تجرأتُ فوضعتُ بيني وبين الله حُمْقي؟»

* * *

ويقولون: إن أختي قد رأتني أتشحّط في دمي فصاحت، وجاء الناس على صوتها، وكان فيهم طبيب، فعمد لأي ما استطاع حبسَ الدم، واحتال حيلته حتى أنشفَ الجرحَ دواءً وضمّده؛ فجعلتُ أثوب نفَساً بعد نفَس، وراجعتُ قليلاً قليلاً . . .

ثم طافت الحياةُ على عينيّ ففتحتهما، فاذا الأشياء تبدو لي وليس فيها حقائقُ ولا معانٍ، كأنها تتخلّق جديدةً تحت بصري، وكأنها خارجةٌ لساعتها من يد الله!

وتماثلتُ شيئاً بعد ساعات، فأحسستُ أن نفسي قد رجعتْ إليّ ساخرةً مني تقول: كيف رأيتَ عملَ العقلِ أيها العاقل؟

وبدأتِ الحياة تتجدّد، فأقسمتُ بيني وبين نفسي أن أجدّد إيماني بالله. ولم أكد أفعل حتى أحسستُ كأن قوّةَ الوجود كلّها مستقرةٌ في روحي، وخُيّل إليّ أني أنا وحدي القويُّ على هذه الأرض قوّةَ جبالها وصخورها، على حين كان جسمي ممدّداً كالميّت لا يتماسك من الضعف!

فأيقنتُ حينئذٍ مالم أعرفه قط من الدنيا ولم أشعر به قطّ في الحياة ولم يأتني به علمٌ ولا فكر: أيقنتُ أنها معجزةُ الايمان الجديد الغضّ، المتّصل بالله لتوّه كايمان الأنبياء دون أن تلمسه شهوة، أو تعترضه خاطرة، أو تكدّره ذرّةٌ واحدة من فكرٍ أرضيٍّ دَنِس

* * *

قال المسيب: ثم جلس المتحدّث، وكان الناس في آخر كلامه كأنما غادروا الدنيا ساعةً ورجعوا إليها على مثل حالته ومثلِ إيمانه؛ فسكت الامام ولم يتكلم، ليدعَ كل نفسٍ تكلّم صاحبها

(للمجلس بقية) (طنطا) مصطفى صادق الرافعي

ظهر حديثاً كتاب:

في أصول الأدب

صفحات من الأدب الحي

والآراء الجديدة

بقلم

أحمد حسن الزيات

يطلب من إدارة مجلة الرسالة ٣٢ شارع البدولي — القاهرة

وثمنه ١٢ قرشاً صاغاً خلاف أجرة البريد